

كَيْفَ نَفْهَمُ التَّوْحِيدَ؟

بقلم
محمد أحمد بن اسميل



بسم الله الرحمن الرحيم ، والصلاة والسلام على خاتم الأنبياء والمرسلين وبعد : فإن الله تعالى لم يخلق الخلق ولم يرسل الرسل إلا ليعبدوه وحده قال تعالى : ﴿وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون﴾ .

ومن المؤسف المبكى ان عامة المسلمين من الجهال لا يعرفون المعنى الحقيقي للعبادة فيتوجهون بها إلى غير الله تعالى (جهلا) فيقعون في الشرك . المخرج من الملة .

وذلك حين يتوجهون في خشية وخضوع إلى المقبورين من الأنبياء والأولياء والصالحين بالدعاء والاستغاثة والذبح والنذور ويطوفون بالقبور والتواييت (تعظيما) كما يطوفون بالكعبة المشرفة . وهذه هي العبادة وان أسموه تبركا وتوسلا .

وإذا كان الجهلة من العامة يرتكبون هذا الشرك عن جهل وعدم ادراك وفهم لمفهوم العبادة . ان هؤلاء قد يكون لهم بعض العذر لجهلهم . ولكن ما عذر العلماء الكبار الذين يعرفون المعنى الحقيقي للعبادة . ويعلمون في قرارة أنفسهم أن ما انغمس فيه العامة هو شرك أكبر مخرج من الملة .

ويصدرون الفتاوى بأن ما يرتكبون من الشرك القولى والفعلى والاعتقادى هو توسل مطلوب وتعبير عن محبة الأنبياء والصالحين . ثم انهم هم لتعميق الشرك في قلوب العامة الذين يتخذونهم قدوة يأتون الاعمال الشركية في الموالد والحوليات المبتدعة وغيرها .

ألا يتقى الله هؤلاء العلماء الذين يكتمون الحق ويشجعون على الكفر .

أمن أجل درهمات بخسة أوجاه زائل يرتكبون هذه الجرائم في حق أنفسهم وفي حق العامة .

إن هذا النوع من العلماء هم الضالون المضلون .

وبعد أيها القارئ الكريم :

فإنني لما كنت ممن يعلم هذه الحقائق المروعة المتمثلة في تفشي الشرك الأكبر بشكل مخيف في مختلف أنحاء العالم الإسلامي .

فإنني استخرت الله تعالى واتكلت عليه .

فأصدرت هذه الرسالة بعنوان «كيف نفهم التوحيد» .

راجيا من الله تعالى أن يتقبلها مني . . . وأن ينفع بها عباده الذين ضلوا عن علم أو عن غير علم .

إنها مني محاولة متواضعة لإخراج من يريد الله تعالى إخراجهم من ظلمات الشرك إلى نور التوحيد .

انه نعم المولى ونعم النصير . . .

ستنقض عرى الإسلام عروة عروة إذا
نشأ في الإسلام من لا يعرف الجاهلية . . .

«عمر بن الخطاب»

كان على جانب كبير من التدبُّن، ومع وداعته ودمائه خلقه، كان
صريحاً إلى أبعد الحدود .

وكنت معه دائماً على وفاق تام، لم نختلف إلا في ناحية واحدة، هي
ناحية التوسل بالأموات ودعائهم والاستغاثة بهم من دون الله والذبح والنذر
لهم .

فقد كانت هذه الأمور مشار جدل بيني وبينه، وكان يبدو لي (من
حديثه) انه - كغيره - يرى أن كل ذلك جائز (على الأقل) إذا لم يكن
مستحباً .

وذات يوم، قال لي : أنت تعلم أنني لم أدع أحداً غير الله ولم أتوسل
إلى الله تعالى بغير عملي .

فقلت له : اعلم هذا وهو الذي يجعلني أطمع فيك وأتوسم فيك
الخير، لأن عاقلاً مثلك يجب أن لا تغيب عنه مفسد مثل هذه الحماقات التي
يرتكبها المغفلون من ضحايا سدنة القبور وتجار الأضرحة .

هل دعاء الأولياء من دون الله كفر؟

قال : ولكنني مع هذا (كما قلت لك أكثر من مرة) لم أهضم ولم أستسغ

(إلى الآن) أن دعاء الأموات والاستغاثة بهم (وخاصة الأولياء والأنبياء والصالحين) شرك مخرج من الملة، مادام أن المستغيثين والمتوسلين لا يعتقدون فيهم القدرة على الضر والنفع والخلق واليجاد والاحياء والإماتة وغير ذلك مما لا يقدر عليه إلا الله .

ولطالما دار النقاش بيني وبينه، إلا أنه (غالباً) ما يكون نقاشاً قصيراً غير عميق بحيث لم يستطع أحدنا اقناع الآخر .
قال لى مرة :

هل لك، أن نضع الموضوع على بساط البحث (وبكل صراحة) نتناوله من جميع نواحيه، بشرط أن نحزم عواطفنا وندعها جانباً، لأن الناس لا يضلون السبيل إلا حيث تتحكم فيهم العاطفة ويتمكن من قيادهم الهوى؟؟

فقلت له : هذه، والله، هي اللحظة التي طالما تمنيتها، لأننى حريص على أن أكشف لك غوامض ومعميات، هي السبب فيما أنت فيه من حيرة وتردد، ولذا تجددنى سعيداً بالتعمق معك فى بحث هذا الموضوع .
قال : عظيم جداً... وأردف قائلاً :

ما هو موقفكم (بالضبط) من هذه المسألة ؟ وما هي الأدلة القطعية التي تستندون إليها فى تكفير الذين يسلكون ذلك الطريق - طريق دعاء الأموات والاستغاثة بالأنبياء والصالحين والذبح والنذر لهم - وتحكمون عليهم بالخروج من الملة؟؟؟

فقلت له : موقفنا من هذه المسألة هو تبع لموقف القرآن الكريم،

وحكمنا هذا ليس رأياً رأيناه وليست نظرية ابتدعناها، وإنما هو امتداد لحكم هذا الكتاب الخالد الذى لا يأتیه الباطل من بين يديه ولا من خلفه .
فالقُرآن الكريم (لا نحن) هو الذى حكم على هؤلاء القبوريين بالكفر وأدانهم بالشرك .

فقال لى : (فى هدوئه المعروف) لا داعى لتكرار هذا القول المجمل، فأنا أعرفه عنكم، وهو لا يزال فى نظرى مجرد دعوى، والدعوى بدون دليل لا تقبل، فما هو الدليل المفصل المقنع ؟! ان الموضوع أكبر وأخطر من ارسال الكلام على عواهنه، فأنتم بإقدامكم على تكفير المسلمين بمثل هذه السرعة واللامبالاة، قد أحدثتم فتنة عمياء بين المسلمين لا يزالون ينجبون فى غمارها حتى الآن .

تمويه القبوريين :

فقلت له : أنتم لا تزالون واقعين تحت تأثير دعايات مضللة كبيرة، فهي التى سدت عليكم منافذ التفكير وجعلتكم تعتقدون فينا ما تعتقدون وتظنون بنا ما تظنون . . .

وعلى العموم فأنتم أحرار، ولكم أن تسموا ما قمنا ونقوم به فتنة، أو تهوراً أو تسرعاً، أو أى شىء آخر يحلو لكم .

غير أن هذا كله لا يغير من الحقيقة المشرقة شيئاً، وهى اننا قوم نظرنا فى كتاب الله تعالى وتدبرناه كما أمرنا الله أن نتدبر .

فأبصرنا وصفاً وصف الله به المشركين الأولين، ينطبق (تماماً) على هؤلاء القبوريين الذين يدعون الأموات ويستغيثون بهم ويتضرعون إليهم،

وشركونهم مع الله في النسك والنذر، فلم تتردد في التنبيه والتبيين، ولم نتهيب أحداً عندما أعلننا ما وصل إليه علمنا، فقلناها صريحة، ورمينا بها بين أكتاف المكابرين، ولا يهمننا رضى الناس عنا أم غضبوا علينا .

فما كان رضى الناس (فى يوم من الأيام) مقياساً للحق، وغضبهم معياراً للباطل .

شبه المشركين والقبورين ونقضها :

أما الدليل على ما نقوله وندين الله به (فى هذه الناحية) فعليك أن تصغى إليه فى التفصيلات الآتية :

أولا : أنتم ترون أن دعاء الأموات والاستغاثة بهم والتقرب إليهم بالذبح والنذر ليكونوا شفعاء ووسطاء إلى الله، كل ذلك ترون انه ليس من الشرك ولا من الكفر، مادام ان القائمين به يؤمنون بالله ربا وأنه لا خالق ولا رازق ولا محيى ولا يميت إلا هو سبحانه وتعالى، ويعتقدون ان من يدعون من دونه لا يملكون لأنفسهم ضرا ولا نفعا .

ولكن الواقع يثبت أن هذه نظرية خاطئة، والتحليل هذا تحليل فاسد يناقض أصول الإسلام مناقضة تامة، وسيوضح لك ذلك جليا فيما يلى إن شاء الله .

حقيقة الصراع بين الأنبياء والمشركين :

فالملتبع للصراع الذى كان ناشباً بين الأنبياء (وخاصة نبينا محمد ﷺ) وبين المشركين الأولين، يجد أن سببه ومداره ليس إنكار أولئك المشركين لوجود الله سبحانه وتعالى وعدم إيمانهم به .

وليس مبعثه عدم تسليمهم بأنه جل وعلا ، بيده ملكوت كل شىء ،
وليس مثاره اعتقاد أولئك المشركين ان من يدعون من دون الله يشاركون الله
فى جلب نفع أو دفع ضرر ، فكل شىء من ذلك لم يخطر على بال أحد من
أولئك المشركين ولم يعتقد أحد منهم شيئاً منه البتة .

إيمان المشركين بالله :

فقد كان هؤلاء المشركون يؤمنون بوجود الله إيماناً جازماً ويوحدونه فى
الربوبية توحيداً كاملاً لا تشوبه أية شائبة ، أى أنهم كانوا يعتقدون أنه تعالى
ربهم ورب كل شىء وان من يدعونهم من دونه من الآلهة والأنبياء ليسوا إلا
بعضاً من عبيده وخلقه لا يملكون لأنفسهم نفعاً ولا ضرراً ، وان الضر والنفع
والموت والحياة بيده وحده سبحانه وتعالى لا يشاركه فى ذلك ولا يظاھرہ أى
مخلوق من مخلوقاته .

هكذا كان إيمان المشركين الأولين بربهم ، وهكذا كانوا يوحدونه فى
الربوبية هذا التوحيد الخالص الذى يقصر دونه (اليوم) توحيد القبوريين من
عباد الأولياء الذين لا يلجأون إلى أوليائهم من الميتين - سكان الأضرحة -
مستغيثين ومستنجدين بهم وضارعين إليهم ، إلا عند الشدائد .

عكس ما كان يفعله المشركون الأولون الذين لا يدعون آلهتهم من
الأولياء المتمثلين فى تماثيلهم وأنصابهم إلا حيث لا يكون ضيق ولا شدة ، أما
فى الضيق والشدة ، فهم لا يلجأون إلا إلى الله وحده لا شريك له وهنا ثارت
ثائرة صاحبي وقال (فى احتجاج ظاهر) : عجيب ، وغريب ، وكيف ،
وكيف ؟!

توحيد أبى جهل وأبى لهب :

أبوجهل وأبولهب ومن على دينهم من المشركين ، كانوا يؤمنون بالله ويوحدونه فى الربوبية خالقاً ورازقاً ، محيياً ومميتاً ، ضاراً ونافعاً ، لا يشركون به فى ذلك شيئاً ؟؟ عجيب ، وغريب ، أن يكون أبوجهل وأبولهب ، أكثر توحيداً لله وأخلص إيماناً به من هؤلاء المسلمين الذين يقولون لا إله إلا الله محمد رسول الله ؟؟ ، ما هذا يارجل ، كيف تجرؤون على التصريح بمثل هذا الكلام الخطير ، الذى هو وأمثاله مما تغالون فيه هو الذى جعلكم أعداء للملايين من المسلمين فى العالم ؟

فقلت له : ليس هذا عجيباً ولا غريباً ، بل هذا هو الواقع الذى ستعرفه وستسلم به (إن شاء الله) عندما تنكشف لك الحقائق جلية ، وتنتصب أمامك الأدلة مشرقة واضحة ، وعندها سيزول (بإذن الله) ما علق بذهنك ، وستتخلص مما رسب فى عقلك من رواسب المغالطات التى تغالطون بها أنفسكم وتظنونها حججاً وبراهين .

الدليل على توحيد المشركين وإيمانهم بالله :

فقال : الدليل يا صاحبي ، ما هو الدليل على هذا الذى تزعمونه ؟ وإذا كان ما تقولونه صحيحاً من أن المشركين الأولين كانوا يؤمنون بالله هذا الإيمان ، فما هو الشرك (إذن) الذى نعه الله عليهم وكتب لهم بسببه الخلود فى النار ، بعد أن أحل دماءهم وأموالهم وأمرني به أن يجالدهم بالسيوف ويطاعنهم بالرماح ؟

فقلت له : وهل غير القرآن مصدر لهذا الدليل . . . إن الدليل في هذا الكتاب الخالد الذى تعبد الله أنت وملايين البشر من على رأيك ، من المنتسبين إلى الإسلام بتلاوته صباحا ومساء ، ولكن دون أن تكتشفوه فتفهموه .

اعتراف المشركين بأن الله وحده الخالق الرازق المحيى والمميت :

فقد قال تعالى مؤكدا إيمان أولئك المشركين الأولين به سبحانه وتعالى ، رباً خالقاً ورازقاً ، ومحياً ومميتاً ، ضاراً ونافعاً ، قال تعالى لنبى محمد ﷺ « في حق هؤلاء المشركين :

﴿ ولئن سألتهم من خلق السماوات والأرض وسخر الشمس والقمر ليقولنَّ الله فأنى يؤفكون ﴾ ، ﴿ ولئن سألتهم من نزل من السماء ماء فأحيا به الأرض بعد موتها ليقولنَّ الله ، قل الحمد لله بل أكثرهم لا يعقلون ﴾ . (العنكبوت ٦٣) ، ﴿ قل لمن الأرض ومن فيها إن كنتم تعلمون ؟ سيقولون لله قل أفلا تذكرون ، قل من رب السماوات السبع ورب العرش العظيم ، سيقولون لله قل أفلا تتقون ، قل من بيده ملكوت كل شىء وهو يجير ولا يجار عليه إن كنتم تعلمون ، سيقولون لله قل فأنى تسحرون ﴾ . (المؤمنون . الآيات : ٨٤-٨٩) .

﴿ قل من يرزقكم من السماء والأرض أم من يملك السمع والأبصار ومن يخرج الحى من الميت ويخرج الميت من الحى ومن يدبر الأمر فسيقولون الله فقل أفلا تتقون ﴾ . (يونس : ٣١) .

فهذه الآيات البينات (يا صاحبي) هي دليلنا الذي لا يقبل الجدل على أن المشركين الأولين ما كانوا يكفرون بوجود الله ، وما كانوا يعتقدون ان له شريكا يشاركه التصرف في شيء من ملكه بل كانوا يوحّدونه (في الربوبية) توحيداً كاملاً .

فصح بهذا يقيناً ، انهم ما كانوا يلجأون إلى أوليائهم (عندما يدعونهم) ليهبوا لهم حياة أو يدفعوا عنهم موتاً أو ينزلوا لهم غيثاً .

وما كانوا يتقربون إلى آلهتهم ممن اتخذوا من الأولياء ليكتبوا لهم سعادة أو يمحوا عنهم شقاء ، وكيف يصدر منهم مثل هذا ، وهم الذين كانوا يؤمنون إيماناً جازماً بأن هذا كله إنما هو من اختصاص ربهم وحده الذي بيده ملكوت كل شيء ؟؟ كما قررت هذه الآيات .

فعلى ضوء هذا الدليل الدامغ ، يتضح لكم بطلان هذا الشرط الهزيل الذي تتمسكون به حين تعتقدون أن من يدعو غير الله لا يكون مشركاً إلا إذا اعتقد ان الضر والنفع بيد من يدعو كما يعتقد في الله .

ولو كان هذا الشرط صحيحاً ، وما تدعونه (في نظر الإسلام) سليماً لما حكم الله على أبي لهب وأبي جهل وحزبه بالشرك . لأن هذا الشرط الذي تشترطونه متوفر فيهم ، لأنهم كانوا لا يعتقدون ان الضر والنفع بيد من يدعو كما يعتقدون في الله ، وقد فصل القرآن ذلك عنهم في الآيات السابقة .

المشركون الأولون كانوا أكثر إيماناً من مشركي هذا الزمن :

أما الدليل على أن توحيد المشركين الأولين وإيمانهم بربهم ، كان أقوى من توحيد القبوريين وإيمانهم في هذا الزمن فهو أيضاً من القرآن ذلك الكنز

الذى لا ينفد والنور الذى لا يخبو، فقد قال الله تعالى فى حق أولئك
المشركين :

﴿فإذا ركبوا فى الفلك دعوا الله مخلصين له الدين ، فلما
نجاهم إلى البر إذا هم يشركون﴾ . (العنكبوت : ٦٥) .

﴿وإذا مسكم الضر فى البحر ضل من تدعون إلا إياه فلما
نجاهم إلى البر أعرضتم وكان الإنسان كفوراً﴾ . (الاسراء : ٦٧) .

﴿قل من ينجيكم من ظلمات البر والبحر تدعونه تضرعاً
وخفية لئن أنجانا من هذه لنكونن من الشاكرين ، قل الله ينجيكم
منها ومن كل كرب ثم أنتم تشركون﴾ . (الأنعام : ٦٣-٦٤) .

فهذه الآيات تثبت أن أولئك المشركين إذا ركبوا فى البحر وتعرضوا
للخطر فتوقعوا نزول قارعة نسوا آلهتهم من الأولياء وغيرهم وكفروا بهم ،
وأخلصوا الدين لله وحده ، وتوجهوا إليه بالدعاء ، معلقين عليه وحده
الرجاء .

لأنهم كانوا يعرفون (تماماً) ان الذين يدعونهم من دونه هم أحقر
وأضعف من أن يجلبوا لهم أية مساعدة أو يقدموا لهم أى عون فى تلك اللحظة
المرجوة ، بل لأنهم كانوا يدركون ان من يدعون من دون الله أعجز من أن
يسمعوا لهم صوتاً ، فضلاً عن أن يجيبوا لهم دعاء .

لذا فشريط المغالطات المعروض أمام بصائرهم يتمزق فى تلك اللحظة
الفاصلة ، وتتجلى أمامهم الحقيقة جلية واضحة ، وهى أن أحداً غير الله
(مهما كان) لا يمكن الالتجاء إليه لانقاذ الموقف فى اللحظات العصيبة .

كيف يلجأ المشركون الأولون إلى ربهم عند الشدائد وينسون آلهتهم ؟

فهم لهذا يلجأون إلى الله وحده . فيخلصون له الدين ، ويدعونه ويتضرعون إليه ويطلبون منه العون والمدد دون سواه وينسون الأولياء الذين اتخذوهم آلهة من دونه في الرخاء لإيمانهم إيماناً جازماً انه سبحانه وتعالى الوحيد الذى يقدر على انقاذهم من الغرق ، فهؤلاء المشركون (بشهادة القرآن) يظنون مخلصين لله الدين ماداموا فى منطقة الخطر، ولكنهم إذا اجتازوا هذه المنطقة ونجوا إلى البر عاودتهم العادة التى وجدوا عليها آباءهم، فيشركون مع الله غيره فى الدعاء والذبح والنذر، وهذا هو الذى أنبهم الله عليه وسأهم بسببه مشركين فى قوله تعالى : ﴿ فلما نجاهم إلى البر إذا هم يشركون ﴾ . (العنكبوت : ٦٥) .

هذا هو حال المشركين الأولين فى إخلاصهم الدين لله وتوجههم إليه وحده بالدعاء عندما يحزبهم أمر أو يحرق بهم خطر .

كيف ينسى مشركو اليوم ربهم عند الشدائد ويلجأون لأوليائهم ؟

أما مشركو هذا الزمن من القبوريين فهم على النقيض من المشركين الأولين ، فلا يدعون الله ولا يضرعون إليه إلا فى الرخاء .

أما إذا اشتد بهم كرب أو ضاق بهم مسلك أو تعذر عليهم مطلب ، فإنهم ينسون الله سبحانه وتعالى ويذكرون أولياءهم فيجعلون منهم آلهة ، فيتقربون إليهم (فى ضراعة وخشوع) بالدعاء والذبح والنذر والخوف والرجاء .

فالبدوى والجيلانى والرفاعى والتيجانى والعيدروس وابن عيسى وغيرهم من الأولياء، لا تسمع الهتاف الحار بأسمائهم، والتوجه بالدعاء الخالص إليهم، إلا عند الشدائد .

والقبورىون إذا ركبوا البحر وأحرق بهم الخطر نسوا الله سبحانه وتعالى، وذكروا أولياءهم، وسارعوا بالابتهال والدعاء إليهم، مستغيثين ومستنجدين، قائلين: (فى ذلة وضراعة) مدد، يابدوى، يا جيلانى، يارفاعى الخ. فتراهم ينجون وكأنهم عندهم حاضرون .

ولورأيتهم (فى هلع وذلة) كيف يتبارون فى نذر النذور لهؤلاء المقبورين ويتعهدون بتقديم القرابين عند قبورهم، ان هم نجوا من الغرق، لأدركت مدى حقارة الشرك وخسة الكفر التى تمرغ كرامة الإنسان فى مزابلها وأوحالها، حيث تنحدر به من مرتبة الإنسان العاقل إلى منزلة أخط من منزلة الأنعام السائمة .

وأى حقارة وخسة ومهانة أخط من أن ينصرف الإنسان بقلبه عن خالقه ورازقه، عن ربه الذى هو معه يسمع ويرى، ثم يتوجه (فى ضراعة وخشوع) إلى عظام نخرة عجزت عن صد غارات الدود الذى اقتتل على التهام اللحم المحيط بها فى القبر يتوجه إليها، فيطلب منها العون والمدد داعيا إياها ومستغيثا بها لتسارع لانقاذه من الغرق؟؟ وصدق الله العظيم :

﴿ومن أضل ممن يدعو من دون الله من لا يستجيب له إلى يوم القيامة وهم عن دعائهم غافلون﴾ . (الأحقاف : ٥) .

ولقد حضرت كثيرا من هذه الحماقات فتأذى نظرى واكتوى قلبى من تلك المهازل الشركية والتصرفات الجاهلية .

كيف اصطدم المؤلف بالقبوريين عندما اشرفوا على الفرق ؟

وقد حضرت كثيرا من هؤلاء وهم يتضرعون إلى أوليائهم بالدعاء الحار في البحر، وذلك عندما كنت مسافرا في البحر الأحمر، منذ أكثر من خمس وعشرين سنة .

فقد كنا أكثر من ثمانين راكبا في سفينة شراعية صغيرة، وعندما هاج علينا الموج وغشينا من كل مكان صارت السفينة تهبط بنا بين الأمواج الهائلة، وكأنها تنوى الاستقرار في قاع البحر، وترتفع (مع المد) وكأنها تريد الطيران من البحر .

وفي تلك الساعة العصيبة، ضج القبوريون بالدعاء وطلب العون والمدد، لا من الله الحي القدير على كل شيء، وإنما من الميت الذي لا يقدر على شيء .

فقد توجهوا بقلوب خاشعة كسيرة، إلى الشيخ سعيد بن عيسى رحمه الله الذي فارق الحياة منذ أكثر من ستمائة سنة، وأخذوا يدعونه في فزع مشوب بالرجاء، قائلين : (يا بن عيسى ، يا بن عيسى ، حلها يا عمود الدين) وأخذوا يتسابقون بنذر النذور له والتعهد بتقديمها عند قبره إن هم نجوا من الغرق، وكان أمرهم بيده، لا بيد الله سبحانه وتعالى .

كاد القبوريون يقذفون بالمؤلف إلى البحر

وعندما حاولت (على صغر سني حينذاك) إقناعهم بأن هذا موقف لا يصح أن يتوجه فيه مسلم إلى غير الله ورجوت منهم (في شفقة وإخلاص) أن يلجأوا إلى ربهم ويخلصوا له الدين بالتضرع بالدعاء إليه وحده، وإن يتركوا

الشيخ ابن عيسى الذي ليس له من الأمر شيء ، الذي لا يسمعهم فضلا عن ان يجيب دعاءهم ، ثاروا وصاحوا جميعا (وهاي وهابي) وكادوا يقذفون بي بين الأمواج الهائجة لولا أن الله حماني منهم ببعض الذين يكتمون إيمانهم في السفينة .

وعندما هدأت العاصفة ونجونا (بعون الله تعالى وفضله) وحده وليس بفضل ابن عيسى طبعاً وأقبل بعضنا يهنيء بعضاً ، أخذ هؤلاء القبوريون ، يؤنبوني ويخوفوني من سوء الظن بالأولياء ، ممتنين على بالنجاة ومذكرين بأنه لولا حضور القطب (ابن عيسى وخفانه) في تلك الساعة العصيبة لكنا جميعاً في بطون الأسماك .

خرافة حضور الأولياء عند الشدائد :

فقلت لهم (وقد أوجعني سماع هذا الكفر الصراح) : انكم تظلمون أنفسكم وتفترون على الشيخ ابن عيسى رحمه الله .

ان هذا الشيخ الميت لهو أعجز من أن يسمع دعاءكم ، فضلا عن أن يجيبه ، فيحضر هنا بين هذه الأمواج لانتقاذكم .

اعقلوا أيها القوم ، إن هذا الذي تدعونه من دون الله ميت ، وقد قرر الله ان الميت لا يسمع وبهذا جاء القرآن :

قال الله تعالى : ﴿انك لا تسمع الموتى ولا تسمع الصم الدعاء إذا ولوا مدبرين﴾ . (النمل : ٨) ، ﴿وما يستوي الأحياء ولا

الأموات إن الله يسمع من يشاء وما أنت بمسمع من في القبور ﴿٢٢﴾ .
(فاطر: ٢٢) (١). ولكنكم لجهلكم بسنن الله ، وإعراضكم عن تدبر وفهم ما
جاء في كتاب الله ، تقعون في مثل هذه الحماقات ، فتتصرفون (بقلوبكم) عن
القادر على كل شيء الذى هو معكم يسمع ويرى ، وتتوجهون إلى الميت
العاجز الذى هو فى غفلة عنكم لا يسمعكم ولا يراكم .

أما نجاتنا ، فلا أثر لابن عيسى ولا لغيره فيها البتة ، وإنما الذى نجانا
(بفضله وكرمه) هو العلى القدير وحده ، دون أن يؤثر عليه دعاؤكم لصالح
أو استغاثتكم بنبي ، لأن الكل (الأنبياء عليهم الصلاة والسلام والصالحين
رضى الله عنهم) ليس معنا أحد منهم فى تلك اللحظة الحرجة ، وإنما الذى
كان معنا (وحده) هو الله الواحد الأحد الذى يسيرنا فى البر والبحر .

فقال أحدهم (متفلسفاً) نحن لا ننكر أن الله فوق الجميع بيده كل
شئ ، فقلت له : هذه مغالطة قديمة ، قالها المشركون الأولون ، وقولك هذا
يخالفه فعلك ، فلو كنت مؤمناً بما تقول إيماناً صادراً من قلبك ، ما انصرفت فى
ساعة الكرب والشدة عن هذا الرب الخالق العظيم وتوجهت إلى المربوب
الميت الحقير ، فصرت أقل إيماناً وأضعف ثقة بالله من المشركين الأولين الذين
يخلصون له الدين ويتوجهون إليه وحده فى الشدة - كما حكى ذلك عنهم .

(١) هذه قاعدة كونية عامة ثابتة لا تتغير وهى أن الميت (أى ميت) لا يسمع إلا من جاء فى حقه دليل خاص
وفى حالات خاصة ، فهذا خصوص يبقى معه العموم على حاله ، فمن أين (إذن) الدليل هؤلاء القبوريين على أن
أولياءهم من الموتى يسمعونهم ، فهل جاء فى القرآن أن الشيخ فلان أو السيد علان قد خصه الله من بين الميتين أنه
يسمع من يناديه من كان وفى أى مكان كان ؟ وإذا فرضنا (جدلاً) أنهم يسمعونهم فهل رخص الله لهم فى أن
يدعوهم ويستغيثوا بهم من دونه ؟ وهل أخبرهم أنهم يحولون باجابه دعائهم والعمل على انقاذهم عند الاستغاثة ؟
سيبقى هذا السؤال دون أن نجد له جواباً مقنعاً عند هؤلاء القبوريين إلى يوم يعثون . . .

كيف يتمثل الشيطان للقبورين في صور أوليائهم ؟

وقال لى آخر (وكأنه حجنى) إنك تكره الأولياء وتنكر كراماتهم ،
ولذلك حرمك الله من التمتع بها رأينا فى تلك الساعات الحاسمة . . . فقلت
له : ومن قال لك اننى أكره الأولياء وأنكر كراماتهم ؟ فهل رأيتنى أشتم ولياً
من أولياء الله ؟ أو انتقص صالحاً من صالحى المؤمنين ؟ ومتى سمعتنى أنكر
كرامة ثابتة أكرم الله بها ولياً من أوليائه نص عليها كتابه أو جاءت بها سنة نبيه
ﷺ ؟؟

فهل سمعت إننى أنكرت كرامة أهل الغار الذين أكرمهم الله فأفرج
عنهم الصخرة بعد أن انطبقت عليهم وسدت عليهم منافذ الغار ؟ .
أم هل سمعتنى أنكرت ولاية أبى بكر وعمر وعثمان وعلى أو غيرهم
من الصحابة (رضى الله عنهم) الذين ثبت (بنص الحديث الشريف) إنهم
من أولياء الله المبشرين بالجنة ؟

أم إنها التهمة التقليدية المكرورة توجهونها إلى كل من لا يوافقكم على
حماقاتكم ولا يؤمن بخرافاتكم ولا يسكت على جهالاتكم ؟؟
ولكن قل لى ما هو الذى حرمنى الله من التمتع به والذى رأيتموه أنتم
فى تلك اللحظة الحاسمة ؟

قال : رأينا القطب العظيم (الشيخ سعيد بن عيسى) وكأنه شعلة من
نور ماسكا بالدقل (سارية السفينة) وهو يخاطب البحر طالباً منه أن يسكن ،
وفعلاً سكن البحر عن الهياج ونجونا ببركة هذا القطب العظيم .

فقلت له : (ساخرا) هل سبق لك أن عرفت الشيخ سعيد بن عيسى العمودي الذي مر على وفاته أكثر من ستائة سنة ؟
قال (طبعاً) : لا . . .

فقلت له : (كيف إذن) عرفت ان الذى رأيته من على الدقل يصدر أوامره إلى البحر بالسكون، هو الشيخ سعيد بن عيسى العمودي، وأنت لم يسبق لك أن رأيته ؟؟ فهل نزل عليك وحي من السماء يؤكد أن الذى رأيته (على فرض إنك رأيته) هو الشيخ ابن عيسى ؟ وهنا ارتج عليه، ولم يحرج جواباً .

غلبت عليه السوداء فتصور ابن عيسى معه حاضراً

فقلت له : الحقيقة إنك لم ترا ابن عيسى ولا غير ابن عيسى على الدقل، وإنما فى حالة الهلع والخوف غلبت عليك السوداء فصورت لك (بالاشتراك مع الشيطان) ما ظننته ابن عيسى، لتزداد ايغالا فى ضلالك وتوغلا فى مفاوز جهالاتك .

وقد كان جوابه الوحيد (الذى قطع به المناظرة) غريباً حين صاح :
وهابى جاحد، زنديق . وهذا هو آخر سلاح، يتسلح به القوم عندما تدمغهم حجة أو يصفعهم برهان .

وهنا قلت لصاحبى : والآن ما رأيك ؟؟

أليس فى هذا ما يقنعك بأن ما ذكرته لك كان صحيحاً من أن إيمان المشركين الأولين برهم وثقتهم به (فى الشدة) كان أقوى من إيمان القبوريين وثقتهم به سبحانه وتعالى ؟

مغالطات القبوريين :

فقال : لقد قسوت على هؤلاء الناس إذ وصفتهم بالشرك وجعلت إيمانهم بالله وتوحيدهم له أقل من إيمان وتوحيد المشركين الأولين ، مع العلم أن هؤلاء القبوريين (كما تصفهم) عندما هتفوا باسم ابن عيسى واستغاثوا به في تلك الساعة الحرجة ، لم يفعلوا ذلك لعدم ثقتهم بالله ، ولم يفعلوه اعتقاداً منهم أن ابن عيسى وغيره ممن يدعون ، هم الذين يسير ونهم في البر والبحر ، أو أنهم معهم يسمعون ويحيون نداءهم كما يحييه الله سبحانه وتعالى .

وإنما يفعلون ذلك لاعتقادهم أن الله سبحانه وتعالى سينجيهم ببركة توسلهم بهؤلاء الأولياء ، فهم ما لجأوا إليهم وهتفوا بأسمائهم في تلك اللحظة الخطيرة ، إلا لاعتقادهم أن هؤلاء جاها عند الله لا بد وأن ينجيهم إكراماً لأوليائه الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون .

قلت له : هذه مغالطة قديمة مكررة ، لا يمكن أن تجوز على عاقل يحترم نفسه لعدة وجوه .

- منها أن هؤلاء القبوريين لو لم يعتقدوا أن هؤلاء الأولياء من الأموات هم معهم في السراء والضراء يسمعون استغاثتهم ويحيون دعاءهم ، وأن في يدهم القدرة على انقاذهم ، لما ابتهلوا إليهم هكذا ، واستنجدوا بهم في ضراعة وتذلل ، استنجاد العاجز الضعيف بالقوى القادر على كل شيء ، ولما نذروا لهم هذه النذور ، وتعهدوا بتقديم القرابين لهم ، إن هم أعانوه على النجاة من الغرق ، بل ولما وفوا لهم بهذا النذر (رغبة ورهبة) .

وهل يقدم عاقل على الهتاف والاستغاثة والاستنجاد بمن يعلم أنه لا يسمعه ولا يحييه ، ولا يضره ولا ينفعه ؟

دعاء الميتين من الأولياء إما كفر أو جنون

ان الذين يدعون الأولياء من الميتين هم بين أمرين : إما أنهم يعتقدون أن هؤلاء الميتين يسمعونهم (على بعد المسافة) ويحيونهم ويعملون على انقاذهم أو لا يعتقدون ، فإن اعتقدوا هذا (وهو ما يعتقدونه فعلا) فهو الشرك الأكبر الذي لا يغفره الله لهم .

وأما أن يعتقدوا أن هؤلاء المدعويين لا يسمعون ولا يحيون وهذا هو الجنون، والمجنون قد سقط عنه التكليف ، فهؤلاء القبوريون (إذن) إما مشركون وإما مجانين وعليك أن تضعهم حيث شئت .

والحقيقة أن هؤلاء القبوريين ليسوا بمجانين ، ولكنهم مفتنونون فتنهم الشيطان وزين لهم هذه الأعمال الشركية وحببها إلى قلوبهم .

فلولم يثقوا في قدرة أوليائهم على انقاذهم أكثر من ثقتهم في الله العلى القدير لما أعرضوا عنه جل وعلا وتوجهوا إلى الميتين ، خاشعين متضرعين متذللين .

فأى كفر وضلال بعد هذا ، وماذا أبقوا بعد هذا الله الذى خلقهم وصورهم؟؟

وبعد أن وصلت مع صاحبي إلى هذه الدرجة من النقاش قال لى (فى ارتباك) : ولكن... ولكن... وتطور ارتبأك إلى تلعثم ، ثم عى فى الكلام فتظاهر بالبحث والتأمل...

فقلت له : من غير لكن . . . ولكن . . .

الدليل في منتهى الوضوح ، وليس لديكم ما يدفعه أو يقف في طريقه ،
فليس هناك دليل على هذه الحماقات الشركية والسخافات الوثنية إلا المغالطة
والتمسك بالأوهام والتمحلات ، التى بها تئدون دينكم وتنحرون
اسلامكم .

ثم قلت له : اعتقد اننى بعد هذا الشرح والإيضاح لست بحاجة إلى
التوسع لاقتناعك بأن الشرك الذى نعه الله على المشركين الأولين ليس
اعتقادهم فيمن يدعون (كيغوث ويعوق ونسرا ، واللات والعزى ومناة) انهم
يشركون الله فى خلق أو ايجاد ، إحياء أو اماتة ، ضرأ أو نفع ، وليس انكارهم
وجود الله تعالى ، أو نفيهم كون ملكوت كل شىء بيده ، فهذا لم يقله أحد من
أولئك المشركين .

الشيوعية قبل الإسلام :

فقال (وكأنه وجد الحجة) : بلى ، لقد ثبت (فى القرآن) أن هؤلاء
المشركين ينكرون وجود الله فهذا قائلهم يقول (كما حكى الله عنهم) .

﴿وقالوا ما هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلا

الدهر . . .﴾ . (الجاثية : ٢٤)

فقلت له : إن هؤلاء ليسوا المشركين الذين تحدثنا عنهم سابقا ، وإنما
هم الدهريون الملاحدة ، وهم فرقة من العرب الذين يسير الشيوعيون اليوم
على مذهبهم ، فهؤلاء ، لا يؤمنون بالله ، ولا بما يعتقده المشركون مقربا لله ،
فهم (أى الدهريون) ينكرون وجود الله وتبعا لذلك يكفرون بالأصنام
والأوثان والألهة التى يتخذها المشركون واسطة تقربهم إلى الله .

فمصدر شرك المشركين الأولين إنما هو إيمانهم بوجود الله مع التوسل إليه وطلب العون من غيره، وهذا ما عناه الله تعالى بقوله : ﴿وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون﴾ . (يوسف : ١٠٦) .

فلولم يكن المشركون يؤمنون بالله ، ما اتخذوا هذه الآلهة واسطة تقربهم إلى الله تعالى كما قال تعالى : ﴿والذين اتخذوا من دونه أولياء ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى﴾ . (الزمر : ٣) .

فصح (بهذا يقينا) ان المعنيين بانكار وجود الله في آية الجاثية التي أوردتها محتجا بها علي ، ليسوا المشركين الذين حدثتكم عن حقيقتهم ، وإنما هم (بعض العرب) الدهريين ، أو الشيوعيين ، ان صح هذا التعبير .

لأنه يستحيل على الذين يدافعون عن شركهم ويبررونه بقولهم في آلهتهم وأوليائهم ﴿ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى﴾ . (الزمر : ٣) ، أو ﴿هؤلاء شفعاؤنا عند الله﴾ . (يونس : ٤) ، يستحيل عليهم أن ينكروا وجود الله الذي ما اتخذوا الآلهة من الأولياء إلا ليقربوهم إليه ويشفعوا لهم عنده ، هذا بالاضافة إلى الآيات الأخرى التي تثبت اعترافهم صراحة بوجود الله وتوحيدهم لله في الربوبية كما تقدم .

حقيقة الشرك الذي كان عليه المشركون الأولون

فقال صاحبي (وقد أعياه طول النقاش) :

فما هو (إذن) الشرك الذي نعه الله على المشركين في القرآن وأحل به دمائهم وأموالهم وأمر رسوله بقتالهم عليه ، مادام انهم يؤمنون بالله تعالى ويوحّدونه هكذا ؟ .

فقلت له : سؤال في الصميم .

هذه هي النقطة الحساسة التي عندها تضل الأفهام وتنزل الأقدام ،
والتي لو وقف الناس عندها وقفة تبصر وتفهم وتدبر ، وأعطوها حقها من
البحث والمقارنة ، لما وجدت منتسباً إلى الإسلام واحداً ، يتوجه بدعاء أو
استغاثة أو ذبح أو نذر أو غير ذلك مما هو حق الله وحده إلى غيره سبحانه
وتعالى من الأنبياء ومن دونهم من الأولياء وغيرهم .

جهل الناس اليوم بحقيقة شرك مشركي العرب أوقعهم في الشرك

فجهل الناس في هذه الناحية الخطيرة وعدم معرفتهم بحقيقة الشرك
الذي كان عليه المشركون الأولون ، هو الذي أوقعهم فيما لا يظنونه شركاً ، وهو
الشرك بعينه ، ولو أنهم بما لا يحسبونه كفراً وهو الكفر ذاته (دعاء الأموات
والاستغاثة بهم والذبح والنذر لهم ليشفعوا لهم ويقربوهم إلى الله زلفى) دون
أن يأذن الله لهم في ذلك .

تخوف ابن الخطاب من الوقوع في الشرك

ولقد أبدى عمر بن الخطاب رضى الله عنه تخوفه مما وقع فيه الناس
اليوم من الشرك ، منذ أكثر من ثلاثة عشر قرناً حيث قال :

«ستنقض عرى الإسلام عروة عروة» قيل وكيف ذلك يا أمير
المؤمنين ؟ قال : إذا نشأ في الإسلام من لا يعرف الجاهلية ، أو كما قال :
فهؤلاء الذين يدعون الأموات اليوم ، ويذبحون وينذرون لهم ، ويطوفون
بقبورهم ، مقدسين ومعظمين خاشعين لهم ، ومتضرعين إليهم بقصد التوسل

والتوسط بهم إلى الله ، لو عرفوا ان هذا هو عين العمل الذى كان عليه العرب في الجاهلية والذى سماه الله شركا واعتبره كفرا لما أقدموا عليه وتمسكوا به ، وثاروا وغضبوا على من أنكره عليهم .

أما الشرك الذى كان عليه المشركون الأولون والذى طلبت منى ايضاحه وسألتنى عن حقيقته فهو أن أولئك المشركين (مع إيمانهم المطلق بوجود الله وتسليمهم بقدرته المطلقة على التصرف في جميع شؤون الكون . دونها شريك أو ظهير) . كانوا قد ابتدعوا بدعة ما أنزل الله بها من سلطان ، هذه البدعة استحسنتها عقولهم وسكنت إليها نفوسهم .

وهى أنهم اتخذوا من المخلوقين (كالكالات والعزى ومناة ويغوث ويعوق ونسرا) أولياء ووسائط يلجأون إليهم ، ويتقربون إليهم بالدعاء والنذر والذبح ليقرّبوهم إلى الله ويشفعوا لهم في قضاء حاجاتهم وكشف كرباتهم ، دون أن يأذن الله لهم بذلك أو يرضاه .

وهذا ما عناه القرآن وأنكره عليهم بقوله :

﴿ويعبدون - أى يدعون - من دون الله مالا يضرهم ولا ينفعهم ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله ، قل أتنبؤون الله بما لا يعلم في السموات ولا في الأرض سبحانه وتعالى عما يشركون﴾ (يونس : ١٨) ﴿مالكم من دونه من ولى ولا شفيع أفلا تتذكرون﴾ . (السجدة : ٤)

اتخاذ الأولياء وسائط إلى الله هو عين الكفر

وعلى أساس هذه الفلسفة ، فلسفة التوسل والتوسط والتشفع بهؤلاء
الآلهة من الأولياء ، كانوا يدعونهم ويستغيثون بهم ويذبحون وينذرون لهم
ويطوفون حول أنصابهم وتماثيلهم جاعلينهم محط آمالهم ومعقد رجائهم
والباب الذي يصلون منه إلى الله بزعمهم .

فهذا وأمثاله هو الذي أنكره الله عليهم واعتبره منهم شركاً وكفراً ، به
أحل دماءهم وأموالهم وجالدهم عليه محمد (ﷺ) بالسيوف في بدر وأحد
وحنين والخندي وغيرها ، وقطع بينه وبينهم (من أجله) كل أواصر القرابة
والنسب .

واعتبره الله عبادة منهم لغيره وشركاً به ، وغضب عليهم وأبعدهم من
رحمته ، لأنهم سلكوا هذا الطريق وابتدعوا هذه البدعة ، بدعة اتخاذ الوسائط
والشفعاء ، يتوكلون عليهم ويلجأون إليهم ليكونوا بابهم إلى الله دون أن
يأذن لهم سبحانه وتعالى بذلك ﴿من ذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه﴾ .
(البقرة : ٢٥٥) .

فقال صاحبى : هذا أيضاً قول مجمل ليس فيه من الأدلة القطعية ما
يقنعنا بصحته ، فما هو الدليل المفصل على صحته ؟؟

فقلت له : الدليل في كتاب الله أيضاً ، فقد قال تعالى : ﴿يا أيها
الناس ضرب مثل فاستمعوا له إن الذين تدعون من دون الله لن
يخلقوا ذباباً ولو اجتمعوا له وإن يسلبهم الذباب شيئا لا يستنقذوه

منه ضعف الطالب والمطلوب ما قدروا الله حق قدره إن الله لقوى عزيز ﴿الحج: ٧٣-٧٤﴾.

كما أنكر عليهم في آية يونس السابقة دعاءهم غيره واتخاذهم وسائط تشفع لهم عنده، وجعل ذلك شركاً به وعبادة لغيره حين قال : ﴿ويعبدون من دون الله مالا يضرهم ولا ينفعهم ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله﴾. ثم أنكر عليهم مبطلا دعواهم ورادا حجتهم هذه - حجة التشفع والتوسل - في تقرير وتوبيخ بقوله : ﴿قل أتنبئون الله بما لا يعلم في السماوات ولا في الأرض سبحانه وتعالى عما يشركون﴾. (يونس: ١٨).

أى انه سبحانه وتعالى ليس بحاجة إلى أن يتقدم إليه أحد في هذه الدنيا بوسيط أو شفيع لأنه لا يخفى عليه شىء من حال عباده حتى يتقدموا إليه بالشفعاء والوسطاء ليخبروه بما خفى عليه، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً.

وقال تعالى منكرًا عليهم التوسط بمن يظنون بهم خيراً من الصالحين وموضحاً أن هؤلاء الذين يدعونهم من دونه هم عباد أمثالهم لا يملكون لأنفسهم جلب نفع أو دفع ضرر، فضلاً عن أن يكشفوا عنهم ضرراً أو يحولوا عنهم سواً، بل انهم (مع قربهم منه جل وعلا) يتقربون إليه بالخوف منه والرجاء في رحمته، ﴿قل ادعوا الذين زعمتم من دونه فلا يملكون كشف الضر عنكم ولا تحويلاً، أولئك الذين يدعون - وفي قراءة

تدعون - يبتغون إلى ربهم الوسيلة أيهم أقرب ويرجون رحمته ويخافون عذابه ، ان عذاب ربك كان محذورا ﴿ (الاسراء: ٥٦-٥٧) .

وقال تعالى معتبرا دعاء غيره من المخلوقين شركاً : ﴿والذين تدعون من دونه ما يملكون من قطمير . ان تدعوهم لا يسمعوا دعاءكم ولو سمعوا دعاءكم ما استجابوا لكم ويوم القيامة يكفرون بشرككم ولا ينبئك مثل خبير﴾ . (فاطر: ١٣، ١٤) .

﴿له دعوة الحق والذين يدعون من دونه لا يستجيبون لهم بشيء إلا كباسط كفيه إلى الماء ليبلغ فاه ، وما هو ببالغه ، وما دعاء الكافرين إلا في ضلال﴾ . (الرعد: ١٤) .

﴿والذين اتخذوا من دونه أولياء ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى ان الله يحكم بينهم فيما هم فيه مختلفون ان الله لا يهدي من هو كاذب كفار﴾ (الزمر: ٣) .

فهذه بعض الأدلة (لا كلها) التى تثبت لك صحة ما ذكرت لك من حال المشركين وتوضح حقيقة الشرك الذى كانوا عليه ، هذا الشرك الذى يقع كثير من الناس فيه لجهلهم بحقيقته .

نسف أعظم شبهة يتمسك بها القبوريون :

قال صاحبى : ان هذه الآيات التى ذكرت لى إنما نزلت فى المشركين من العرب فى الجاهلية فهى خاصة بهم ، أما هؤلاء الذين يستغيثون اليوم بالأولياء فلا صلة لهذه الآيات بهم ولا يمكن أن تنطبق عليهم . فقلت له : وهذه حجة منقوضة ومغالطة مكشوفة .

فهذه الآيات (حقاً) إنما نزلت في أيام مشركى العرب وفي حقهم ، بل القرآن كله إنما نزل في تلك الأيام ، ولكن هذا الكتاب الخالد هو خطاب الله لعباده في كل زمان ومكان ، وأوامره خالدة يجب اتباعها ، ونواهيه أبدية يحتم اجتنابها إلى يوم يبعثون .

فالعبرة في القرآن بعموم اللفظ لا بخصوص السبب ، والقاعدة الثابتة عند جميع المسلمين هي أن الحكم يدور مع العلة فأينما وجدت العلة وجب الحكم .

والعلة في شرك المشركين الأولين هي أنهم كانوا يدعون من دون الله عباداً أمثالهم ويعتمدون عليهم ليكونوا شفعاءهم عند الله ، وهذا هو نفس الشيء الذى يفعله القبورىون اليوم ، يدعون الأولياء ويستغيثون بهم ليكونوا واسطتهم إلى الله ، ومن هنا جاء الحكم على الفريقين بالشرك (دونما تمييز) لأنهم اتحدوا في القصد والعمل ، التوجه إلى غير الله بالدعاء والذبح والنذر ليكون شفيعهم عند الله .

فقال : ان قياسك هذا الذى طبقت (بموجبه) حكم الشرك على الفريقين (دونما تمييز) هو قياس مع الفارق لا يمكن التسليم به .

فقلت له : الآن وقد أوضحت لك (بعد أن اجهدت نفسى) أن كفر المشركين الأولين إنما كان في اتخاذهم الوسائط والشفعاء والتقرب إليهم بالدعاء والذبح والنذر لهم ، وبينت لك أن القبوريين اليوم إنما يسلكون نفس هذا الطريق ، ويسيرون على هذا المنهج حذو القذة بالقذة ، فهل لك أن تبين لى ما هو الفرق الذى يجعل عمل أولئك كفراً وشركاً ، يعاقب الله عليه بالخلود

فى النار، وصنيع هؤلاء توسلا مباحا يرضى الله عنه ولا يعاقب عليه، مع اتحاد الفريقين فى العمل واتفاقهما فى المقصد ؟

فقال : الفرق من عدة وجوه :

(أولاً) : ان أولئك المشركين كانوا يعبدون غير الله ، وقد جاء اعترافهم بعبادة غير الله واضحة فى قولهم (كما حكى عنهم) ﴿ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى﴾ .

أما المتوسلون اليوم بالأولياء فهم ينكرون عبادة غير الله ، ويقولون انهم لا يقصدون بدعاء الأولياء من الأموات والاستغاثة بهم ، عبادتهم ، وإنما يقصدون التبرك والتوسل ، ومن هنا يجىء التمييز بينهم وبين المشركين فى الحكم .

تبديل الألفاظ لا يغير من الحقيقة شيئاً :

فقلت له : إن الأفعال والمقاصد (كما قلت لك فيما مضى) هى التى يترتب عليها الحكم ولا قيمة للألفاظ التى يتشبث بها للدفاع عن تصرفه ، خوفاً من صدور الحكم عليه ، مادام ان فعله هو العلة الموجبة للحكم الذى صدر ضده .

فلو أن إنساناً اعتاد السجود للصنم ، وظل (مع ادمانه على هذا السجود) يعلن استنكاره لعبادة غير الله ، ويصرح بأنه لم ولن يعبد غير الله ، فهل يكون قوله هذا (مع فعله ذاك) مانعاً من إدانته بالشرك والحكم عليه بالكفر؟؟

فقال صاحبه : لا . . . بل هو كافر ومشرك .

فقلت له : فهذا (إذن) ينطبق تماماً على القبوريين اليوم ، فتصرفاتهم قد أدانتهم بالشرك والكفر، ومع هذه الادانة الصريحة، فهم ينكرون هذا ولا يعترفون به .

فالفارق بينهم وبين المشركين الأولين هو أن أولئك المشركين أكثر صراحة عندما اعترفوا بعبادتهم لغير الله ، والمشركون من القبوريين أعرق في التمسويه والمغالطة عندما أقدموا على عبادة غير الله ثم أنكروا هذه العبادة وسموها بغير اسمها .

فقال (محاولاً المغالطة) : أنا قد قلت ولا أزال أقول لك إن فعل المشركين الأولين هو عبادة لغير الله ، وبفعلهم هذا استحقوا اسم الشرك ووصف الكفر .

وأفعال المتوسلين اليوم بالأولياء والمستغيثين بهم ليس عبادة لهم ، ولهذا لا يصح الحكم عليهم بالكفر والشرك .

فقلت له : لقد أجهدتني بتكرار محاولاتك للتهرب من الاعتراف بالحقيقة التي ما كنت اعتقد أن عاقلاً مثلك يمارى في الاعتراف بها هكذا .

ولقد أوضحت لك (بما لا مزيد عليه من الشرح) حقيقة إيمان المشركين الأولين بوجود الله وتوحيدهم إياه جل وعلا (في الربوبية) توحيداً كاملاً وبينت لك بكل وضوح، حقيقة الشرك الذي كانوا عليه والأسباب الموجبة لادانتهم به والحكم به عليهم .

وشرحت لك بالتفصيل ان حكمنا على هؤلاء القبوريين بالشرك إنما جاء نتيجة للمقارنة بين فعلهم وفعل أولئك المشركين الأولين الذين أصدر

القرآن حكمه في حقهم منذ أكثر من ثلاثة عشر قرناً، وتوصلنا (بعد البحث الدقيق والمقارنة الصحيحة) إلى أن ما يفعله القبوريون اليوم مع أوليائهم من دعاء واستغاثة وذبح ونذر وخوف ورجاء، هو عبادة لغير الله سبحانه وتعالى . لأنه (بالضبط) نفس الفعل الذى كان يفعله المشركون الأولون مع أوليائهم ومدعوهم من دون الله، وهو الذى اعتبره الله منهم عبادة لغيره . ولكنك مع هذا تصر على التمييز بين الفريقين في الحكم، مع ان الجميع (باشتراكهم في القصد والعمل) يجتمعون على عبادة غير الله . ومادام ان هذا لا يزال هو رأيك فإن لى سؤالا أرجو منك الاجابة عليه بالتفصيل، وهو :

هل لك أن تشرح لى حقيقة العبادة التى عبد المشركون بها غير الله فساهم بها مشركين وحكم عليهم بالكفر من أجلها ؟

الدعاء والذبح والنذر لغير الله هو الشرك الأكبر :

اننى أريد منك الاجابة على هذا السؤال، لكى نستطيع إدراك ما إذا كان هناك فرق بين الفريقين، به ندرك صحة نظريتك التى تعتبر عمل أولئك المشركين الأولين عبادة لغير الله وتنفى عن القبوريين صفة هذه العبادة ؟ وهنا بدت عليه الحيرة والارتباك، فقد تلقى هذا السؤال وكأنه سوط ألهب ظهره فقد أوقعه هذا السؤال بين شقى الرحى، ولكنه لم يستسلم إلا أنه (من فرط حيرته) اعترف بحقيقة كان (طيلة المناقشة) يحاول التهرب من الاعتراف بها .

فقد قال :

إن الحقيقة التي يجب الاعتراف بها، هي أن المشركين الأولين ما كانوا يفعلون مع أصنامهم أكثر من أنهم يتقربون إليها بالدعاء والذبح والنذر والطواف، وما شابه هذا من العبادات والقرب، مع اعتقادهم أنها لا تخلق ولا ترزق ولا تحيى ولا تميت، ولا تدفع شراً ولا تجلب خيراً .

فهدفهم مما يعملون لها إنما هو لترضى عنهم فتقرهم إلى ربهم وتشفع لهم عنده، ليكونوا محل رحمته ورعايته .

وهذا هو حقيقة عبادتهم لغير الله، والتي بها ساهم الله مشركين وحكم عليهم بالكفر. ولا اكتمك بل اقولها - صراحة - اننى ما كنت أعرف أن هذا هو حقيقة الشرك الذى كان عليه المشركون الأولون، إلا من سير المناقشة التى دارت بينى وبينك هذه المرة .

فقلت له : عظيم جداً . . . لقد اتفقنا إذن (بعد طول النقاش) على نقطة من أهم النقاط فى الموضوع، وهى تحديد العبادة التى كان عليها المشركون الأولون .

وهذا يعنى طبعاً انك تعترف وتقرر بأن الدعاء والذبح والطواف والنذر والتذلل والتضرع عبادة .

لا فرق بين القبوريين اليوم وبين المشركين الأولين

ثم قلت له : والآن وقد وفقت فى الاجابة على هذا السؤال، فإن لى سؤالاً آخر أرجو منك الاجابة عليه بنفس الصراحة التى أجبت بها على السؤال الأول .

أليس القبورىون اليوم يتوجهون إلى أوليائهم من الميتين بالدعاء والذبح والنذر والطواف والتضرع والخشوع ، لكى يرضوا عنهم فيشفعوا لهم عند الله ويتوسطوا لهم لديه ؟؟

فقال : بل وهذا هو واقع حالهم الذى لا يمكن انكاره البتة فقلت له : (إذن) لقد اتفقنا على ان الفريقين متساويان فى هذه الناحية ، القبورىون يتوجهون إلى أوليائهم بالدعاء والتضرع والذبح والنذر والطواف ، وكذلك يفعل المشركون مع معبوديهم من دون الله ومعنى هذا أن كلا من الفريقين يتوجه بالعبادة إلى غير الله ، وهذا هو عين الشرك الذى حرمه الله .

فهل يبقى (بعد هذا) لديك مانع من الاعتراف بأن القبورىين (بعملهم هذا) قد اشركوا بالله ، لتساويهم واتحادهم (فى القصد والعمل) مع المشركين الأولين ؟؟

هل هناك فرق بين دعاء الأصنام والأوثان وبين دعاء الأولياء والصالحين ؟

فقال : نعم . . . المانع لدى من الاعتراف بهذا ، هو أن أولئك المشركين يدعون أصناما وأوثانا هى من صنع أيديهم ، ليس لها جاه أو منزلة عند الله وهؤلاء (القبورىون كما تسمونهم) يدعون أولياء ويستغيثون بصالحين لهم جاههم ومنزلتهم عند الله ، كما قال تعالى : ﴿ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾ (يونس : ٦٢) .

فالفارق كبير بين الأحجار والأصنام التي اتخذ المشركون منها آلهة يعبدونها وبين الأولياء والصالحين الذين لم يقل الداعون لهم بأنهم آلهة من دون الله .

فقلت له : لقد استبشرت فيما مضى ، حيث بدا لي أنك أخذت في السير على الطريق الصحيح المؤدى إلى معرفة الحق والصواب ، ولكنك مع الأسف أركست في الحمأة من جديد ، حيث عدت إلى سلوك طريق الزوغان والمغالطة التي تجعل نقاشنا يدور في حلقة مفرغة ينتهى من حيث بدىء ويبدأ من حيث انتهى .

إن تفريقك هذا هو فى غاية السخف والغباء ، وحجة هى من الضعف والتخاذل بحيث لا يمكن النظر فيها فضلا عن قبولها .

فالمعروف عند جميع المسلمين (كما هى القاعدة المقررة) أن التوجه بالعبادة (آية عبادة) إلى غير الله تعالى ، هى كفر بالله وشرك مخرج من الملة . ولا فرق ، سواء كان المتوجه إليه بالعبادة نبيا مرسلا أو ملكا مقربا أو وليا صالحا أو حجرا أصم أو شيطانا مريدا ، وهذا مالا يختلف فيه اثنان من المسلمين .

ولقد اعترفت (أنت) أثناء مراحل هذه المناقشة ، بأن الدعاء والذبح والنذر والطواف هو عبادة .

واعتبارك توجيه المشركين هذه العبادة إلى أصنامهم وأوثانهم كفرا بالله
وشركا به ، وتوجه القبوريين بنفس هذه العبادة إلى أوليائهم من سكان
الأضرحة ، ليس عبادة ولا شركاً ، هو غاية التعسف والحيدة المقصودة عن
جادة الحق الصواب ومحاولة فاضحة لانكار أمر واقع كواقع الشمس والقمر .

فتميزك هذا ليس له حجة دينية من القرآن أو الحديث تسنده وليس له
برهان عقلي يعضده ، وإنما هو قول أملاه منطق العناد والمكابرة الذى ما كنت
أظن (بعد طول هذه المناقشة) أنك ستبقى أسيراً من أسراه وضحية من
ضحاياه .

فقال : أنا لست أسيراً لعناد ولا ضحيةً لمكابرة ، وإنما أنا مثلك لى
حق التعبير عما أراه وأعتقده ، وهذا هو الذى لا أزال أراه وأعتقده ، وقد اتفقنا
(فى بدء المناقشة) على أن نكون صرحاء فى المناقشة وأن نرفع عواطفنا جانباً ،
فأرجوك أن لا تنفعل وأن تترك لى حريتى فى التعبير عن كل ما أراه ، وإذا لم
يرق لك رأى الذى أرى فإن من حقت نقضه ورفضه بما ترى مما تعتقده
حججاً وبراهين ، على أن يكون ذلك من غير انفعال أوقسوة فى التعبير ،
لأن ذلك له أثره الضار فى المناقشة ، مما لا يساعد على الوصول إلى الغاية
المطلوبة التى يدور النقاش من أجلها . فقلت له : أنا معك فى أن الانفعال
والقسوة فى التعبير أثناء مناقشة (ما) لا يساعدان على الوصول إلى الغاية
المطلوبة من المناقشة .

وسأحاول جاهداً انقاذك مما أعتقد انه ضلال .

شرك المشركين الأولين ما كان إلا بعبادتهم الأولياء والصالحين

وبما أنك لا تزال مصراً على التمييز بين الفريقين في الحكم ، وحجتك أوشبهتك (على الأصح) هي أن المشركين الأولين كانوا يتخذون من الأحجار أصناماً وأوثاناً يتقربون بها إلى الله ، وأن القبوريين اليوم إنما يتوجهون إلى أولياء وصالحين ، فأنا مستعد أن أزيل هذه الشبهة الضعيفة ، فأثبت لك أن المشركين الأولين كانوا ، تماماً ، كالقبوريين الحاليين ، لا يتوجهون بالذبح والنذر والطواف والدعاء إلا إلى عباد يعتقدون فيهم الصلاح والاستقامة من الآدميين ، وأنهم ما كانوا - في حقيقة أمرهم - يعبدون إلا الأولياء والصالحين .

وأن التماثيل والأنصاب ما كانوا يعبدونها لذاتها وإنما يعبدون الأشخاص التي كانت هذه الأصنام والتماثيل والأنصاب ترمز إليهم وتسمى بأسمائهم (كيغوث ويعوق وود ونسرا وسواع واللات والعزى) .

أما الدليل على أن المشركين الأولين كانوا (كالقبوريين اليوم) يعبدون الأولياء والصالحين ، ويتخذونهم آلهة من دون الله ، فهو في القرآن الكريم ، إلا انكم لا تهتدون إليه ، فقد خاطبهم الله تعالى جميعاً بقوله :

﴿ان الذين تدعون من دون الله عباد أمثالكم فادعوهم فليستجيبوا لكم ان كنتم صادقين﴾ (الاعراف : ١٩٤) .

﴿مثل الذين اتخذوا من دون الله أولياء كمثل العنكبوت اتخذت بيتاً وإن أوهن البيوت لبيت العنكبوت لو كانوا يعلمون﴾ . (العنكبوت : ٤١) .

ثم وضع القاعدة العامة في العبادة للجميع في كل زمان ومكان حين قال : ﴿ألا لله الدين الخالص والذين اتخذوا من دونه أولياء ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى﴾ . (الزمر: ٣) .

﴿قل أفأتخذتم من دونه أولياء لا يملكون لأنفسهم نفعا ولا ضرا﴾ . (الرعد: ١٦) .

﴿أفحسب الذين كفروا أن يتخذوا عبادى من دونى أولياء﴾ . (الكهف: ١٠٢) .

﴿أم اتخذوا من دونه أولياء ، فالله هو الولي﴾ . (الشورى: ٩) .

﴿قل أغير الله اتخذ ولياً فاطر السموات والأرض﴾ . (الانعام: ١٤) .

فهذه الآيات الكريمة تثبت (بما لا يدع مجالاً للشك) أن المشركين الأولين ، إنما كانوا (كالقبوريين اليوم) يدعون الأولياء والصالحين ويتخذون منهم آلهة يعبدونها بالدعاء والذبح والنذر والطواف والخوف والرجاء لتشفع لهم وتقربهم إلى الله زلفى .

المشركون ما كانوا يعبدون الأصنام لذاتها

وأن الأصنام والأنصاب والتماثيل والأوثان (كالات والعزى ومناة ويغوث ويعوق ونسراً) إنما كانت تمثل أولئك الأولياء والصالحين بحملها أسماءهم ، فهم (أى المشركون الأولون) لا يعبدون هذه الأصنام والتماثيل

لذاتها، وإنما يعبدون الأشخاص المتمثلين فيها، ممن يظنون بهم خيرا، ويعتقدونهم أولياء وصالحين تماما كما يفعل القبوريون اليوم .

وبهذا يتضح لك أن الفريقين - القبوريين والمشركون الأولين - يتساوون من حيث عبادة الأولياء، والفرق الوحيد بين الفريقين هو أن المشركون كانوا يعكفون حول التماثيل والأنصاب التى تحمل أسماء أوليائهم ويقصدونها ويتوجهون إليها، والقبوريون اليوم يعكفون حول القبور والتوابيت والأضرحة والمشاهد التى تحمل أسماء أوليائهم ويقصدونها ويتوجهون إليها، على أن المقصود الحقيقى ليس تلك الأنصاب والتماثيل، ولا هذه القبور والتوابيت والمشاهد، وإنما المقصود من تحمل أسماءهم تلك الأنصاب والتماثيل أو هذه القبور والتوابيت .

فلوسألت اليوم أحد القبوريين العائدين للبدوى (مثلا) من أين أتيت ؟ لقال لك جئت من عند سيدى البدوى، بينما هو (فى الحقيقة) لم يأت من عند البدوى ولم يسبق له أن عرفه أوراها . وإنما أتى من عند القبر أو التابوت الذى يحمل اسم البدوى، نفس الشئ الذى كان عليه المشركون الأولون الذين لم يذهبوا (فى الواقع) إلى (اللات أو يغوث أو يعوق ذاتهم) وإنما ذهبوا وتوجهوا إلى الأنصاب والأصنام والتماثيل التى تحمل أسماء هؤلاء الأولياء أو ممن يظنون أنهم أولياء .

الأصنام ليست إلا أسماء رجال صالحين

فقال صاحبى : ومن أين لك الدليل على أن المشركون الأولين ما كانوا يعبدون الأنصاب والأصنام والتماثيل، المقامة من الحجر أو الذهب أو

النحاس لذاتها، وإنما يعبدون أولياء وصالحين سميت بأسمائهم هذه الأنصاب والتماثيل ؟

فقلت له : أما الدليل القاطع على ذلك فقد كان بوسعك (لو وفقت) أن تفهمه مما مضى من الآيات الكريمة التى تثبت (بما لا يدع مجالاً للشك) أن المشركين الأولين ما كانوا يعبدون إلا الأولياء والصالحين ، وقد أوردتها لك فيما مضى من هذا النقاش^(١) .

ولكننى زيادة فى الإبلاغ وتوسعاً فى إقامة الحجة ورغبة فى إزالة كل شبهة يمكنك التشبث بها أو الوقوف عندها ، سأذكر لك (إن شاء الله) ما يسند قولى هذا ويطيح بآخر شبهة قد تتمسك بها للبقاء على رأى الذى تشبث به .

يعقوب ويعوق ونُسر كانوا رجالاً صالحين من قوم نوح

(١) روى البخارى عن ابن عباس رضى الله عنه قال صارت الأوثان التى كانت فى قوم نوح فى العرب ، اما (ود) فكانت لكلب (بدومة الجندل) و(سواع) لهذيل و(يعقوب) لمراد ، ثم صارت لبني غطفان (بالخوف أو الجرف) عند سبأ .

أما (يعقوب) فكانت لهمدان ، وأما (نسر) فلحمير ، لآل ذى الكلاع وكلها أسماء رجال صالحين من قوم نوح ، فكلما هلكوا أوحى الشيطان إلى

(١) اتضح من سير نقاشنا فيما مضى ان عبادة غير الله التى نعاها الله على المشركين إنما هى الدعاء والذبح والنذر والخوف والرجاء الموجه به إلى غيره من الأصنام والأوثان المقامة بأسماء الأولياء الصالحين .

قومهم أن انصبوا إلى مجالسهم التي كانوا يجلسون فيها انصابا، وسموها بأسمائهم ففعلوا فلم تعبد، حتى إذا هلك أولئك وتنسخ العلم عبت . . .
(٢) وبمثل قول ابن عباس، قال الكلبي في كتابه (الأصنام) ص ٥٢
قال ما يأتي : «ثم جاء القرن الثالث فقالوا ما عظم أولونا هؤلاء إلا وهم يرجون شفاعتهم عند الله فعبدوهم» .

(٣) وقال محمد بن كعب عن (ود وسواع ويغوث ويعوق ونس) :
«هذه أسماء قوم صالحين كانوا بين آدم ونوح، فلما ماتوا كانوا لهم أتباعا يقتدون بهم، يأخذون مأخذهم في العبادة، فجاءهم إبليس وقال لهم، لو صورتم صورهم كان أنشط لكم وأشوق إلى العبادة، ففعلوا، ثم نشأ قوم بعدهم، فقال لهم إبليس : إن الذين كانوا قبلكم كانوا يعبدونهم فعبدوهم» .

متى بدأت عبادة الأصنام؟

فابتداء عبادة الأوثان كان من ذلك، وسميت تلك الصور بهذه الأسماء لأنهم صوروها على صور أولئك القوم من المسلمين .

وروى ابن جرير عن محمد بن قيس قوله : «كانوا قوما صالحين بين آدم ونوح، وكان لهم اتباع يقتدون بهم، فقالوا، لو صورناهم كان أشوق لنا إلى العبادة إذا ذكرناهم فصوروهم» وإلى مثل هذا ذهب عكرمة والضحاك وقتادة وابن اسحاق .

اللات كان رجلا يلت السوق للحجاج :

(٤) اما اللات فقد روى البخارى عن ابن عباس رضى الله عنه : «كان اللات رجلا يلت السوق للحجاج» وقال ابن الكلبي في (الأصنام) ص ١٦ : واللات بالطائف، وهى أحدث من مناة وكانت صخرة مربعة، وكان يهودى يلت عندها السوق، وهو كقول ابن عباس .

(٥) ويقول الشهرستاني - صاحب الملل والنحل - (وضع الأصنام حيثما قدر إنما هو على معبود عليه الحياة غائب، يكون الصنم المعمول على صورته وشكله وهيئته نائباً منابه وقائماً مقامه، والا فنعلم قطعاً ان عاقلاً مالا ينحت بيده جسماً لصورة، ثم يعتقد انه إله . لكن القوم لما عكفوا على التوجه إليها، وربطوا حوائجهم بها - من غير إذن وحجة وبرهان وسلطان من الله تعالى - كان عكوفهم ذلك عبادة، وطلبهم الحوائج منها إثبات الهية لها، وعن هذا كانوا يقولون ﴿ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى﴾ (الزمر: ٣) .

فهل بعد هذا يبقى لديك شك في أن الأصنام إنما أقيمت بأسماء اناس اعتقد قومهم فيهم الصلاح وأحبوهم، وأن هذه الأصنام لم تعبد لذاتها وإنما عبدت تبعاً لعبادة من أقيمت بأسمائهم ؟

أشكال قبورى كبير يحله المؤلف :

فقال (وقد بدت عليه علامة التسليم بوجاهة النظرية التى شرحتها له) : ولكن الأمر لا يزال فيه كثير من الاشكال .

﴿وإذ قال إبراهيم رب اجعل هذا البلد آمناً واجنبني وبنى أن نعبد الأصنام﴾ (إبراهيم: ٣٥) .

فقلت له : اشرح لى هذا الأشكال وأنا إن شاء الله سأبين لك كل ما أشكل عليك فى هذه الناحية .

فقال : تبين فيما أوردت من آيات وآثار انك تريد إثبات ان المشركين الأولين ما كانوا يعبدون إلا الأولياء والصالحين، لكى تثبت (عن طريق القياس) ان القبوريين (كما تسميهم) يعبدون الأولياء والصالحين كذلك .

ولكنه جاء فيما أوردت من آيات ان المشركين كانوا يعبدون الأصنام عبادة حقيقية لذاتها، ولو كانوا لا يعبدونها لذاتها وإنما يعبدون الأولياء والصالحين التى تحمل هذه الأصنام أسماءهم، لبين الله لنا ذلك ولاقتصر القرآن على توبيخ المشركين على عبادتهم الأولياء ماداموا لا يعبدون إلا هؤلاء الأولياء، ومادام انهم (أى المشركون الأولون) لا يعتمدون على هذه الأصنام لتشفع لهم عند الله .

ولكن جل التحذيرات والتوبيخات التى جاءت فى القرآن لهؤلاء المشركين حول هذا الموضوع إنما كانت مركزة على نهيمهم عن عبادة الأصنام والأوثان والأنصاب .

﴿فاجتنبوا الرجس من الأوثان واجتنبوا قول الزور﴾
(الحج : ٣٠) .

﴿إنما تعبدون من دون الله أوثانا وتخلقون إفكا﴾
(العنكبوت : ١٧) .

﴿وقال إنما اتخذتم من دون الله أوثانا مودة بينكم فى الحياة الدنيا﴾ (العنكبوت : ٢٥) .

﴿فأتوا على قوم يعكفون على أصنام لهم﴾
(الاعراف : ١٣٨) .

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً﴾
(الأنعام: ٧٤).

﴿قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَنْظِلُهَا عَاكِفِينَ﴾ (الشعراء: ٧١).
﴿وَتَا اللَّهَ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ بَعْدَ أَنْ تُولُوا مَدْبَرِينَ﴾
(الأنبياء: ٥٧).

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رَشْدَهُ مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ، إِذْ قَالَ
لَأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ﴾
(الأنبياء: ٥١، ٥٢).

فهذه الآيات مما يلقي ضوءاً على أن المشركين كانوا يعبدون الأصنام
والأوثان لذاتها ولهذا جاء النهي عن عبادة هذه الأوثان والأصنام صريحاً كما
جاء هذا النهي أيضاً عن عبادة الأولياء .

عبادة الأصنام إنما هي للأولياء

فقلت له : نعم لقد ثبت هذا النهي عن عبادة الأصنام وعن عبادة
الأولياء، وهذا (صراحة) يدين القبوريين بعبادة غير الله لأنهم يعبدون
الأولياء، ولو لم يأت في القرآن إلا النهي عن عبادة غير الله مع ذكر الأصنام
وإهمال ذكر الأولياء، لاعتبرنا القبوريين عبدة أولياء لأن هؤلاء الأولياء هم
غير الله، توجه إليهم هؤلاء القبوريون بنفس العبادة التي يتوجه بها
المشركون إلى أصنامهم (الدعاء والذبح والنذر والخوف والرجاء) وهذا على
فرض أن المشركين الأولين لم يعبدوا إلا أصناماً وأوثاناً من الحجر والنحاس
والذهب وغير ذلك من الجمادات .

ولكن الثابت أن أولئك المشركين كانوا يعبدون الأولياء والصالحين
لذاتهم، ويعبدون الأصنام والأوثان والتماثيل لا لذاتها وإنما تبعاً لعبادة

معبودهم الحقيقيين من الأولياء والصالحين الذين أقيمت بأسمائهم هذه الأصنام والأوثان والتماثيل ، كما بينته لك فيما مضى بالأدلة القطعية .

لهذا يصفهم الله سبحانه وتعالى مرة بأنهم عباد أصنام ، ومرة عباد أولياء ، فهم عباد أصنام بالسعى إليها والطواف حولها والعكوف عليها وتقديم القرابين لها .

وهم أيضا عباد أولياء بدعائهم لأصحاب هذه الأصنام وطلب حوائجهم منهم (والاعتماد عليهم شفعاء ووسطاء عند الله دون أن يأذن لهم بذلك) .

وهكذا القبوريون اليوم ، يقبلون استار الضريح ويطوفون حوله ويزينونه وينون القباب عليه ويقربون له النذور ، فهم بهذا عباد قبور صراحة وعباد أولياء ضمنا .

ثم هم في طوافهم حول ضريح يدعون صاحبه الميت ، ويستغيثون به ويستنجدون ، ويطلبون المدد ، فهم بهذا عباد أولياء صراحة ، وعباد قبور ضمنا .

فإن سميتهم عباد قبور فأنت صادق ، باعتبار ما يصنعونه للقبور ، وإن سميتهم عباد أولياء ، فأنت صادق ، باعتبار ما يعبدونه به أولياءهم من دعاء ونذر وحلف وخوف ورجاء .

وهم ، هم في الحالين بشركهم الأكبر ، وإن سميتهم عباد أوهام وشهوات ، فأنت صادق فعابد القبر إنما فتنه هواه فأضله فعبده ، وعباد القبر

إنما يصور في الضريح ويصنع له ما تنزوبه شهواته^(١).

واسمع ما قاله الأستاذ عبد الرحمن الوكيل (في كتابه دعوة الحق ص ٦٢).

التعبير بمن وبما عن آلهة المشركين وتحقيق ذلك

وهذا هو سر التعبير أحيانا (بمن) في موضع والتعبير (بما) في موضع في القصة الواحدة في القرآن، أوسر التعبير بما له دلالة على ما يعقل وبما له دلالة على ما لا يعقل في الموضع الواحد، وضع هذا مكان ذاك في القصة الواحدة.

فإذا عبر بـ (ما) الدالة على ما لا يعقل فالمقصود بما أقيم بأسماء الأولياء من أصنام وثمانييل^(٢) وكلا التعبيرين لا يختلف أحدهما عن صاحبه إلا بالاعتبار أو كلاهما يعبر عن ذلك (الغير) الذي عبد من دون الله.

فتختص (من) بذاته، وتختص (ما) بالصنم أو القبر الذي أقيم باسمه (٤٦ : ٥) ﴿ومن أضل ممن يدعو من دون الله من لا يستجيب له إلى يوم القيامة؟﴾، وفي الآية التي قبل هذه الآية من السورة نفسها وهي الاحقاف ﴿قل أرأيتم ما تدعون من دون الله أروني ماذا خلقوا من الأرض﴾ فعبر عن شيء واحد من وما.

(١)، (٢) دعوة الحق «ص ٦٢» للأستاذ عبد الرحمن الوكيل.

فلا يخذلك عباد القبور عن الحق بالباسه بالباطل ، حين يزعمون ان
شرك الجاهلية كان سببه دعاء الأصنام ، ولذلك يعبر الله عنها بـ (ما) الدالة
على مالا يعقل ، أما نحن فندعو أولياء .

وأنت قد عرفت من القرآن سر التعبير بـ (من وما) ورأيته يعبر بهما في
الموضع الواحد ، ويضع احدهما مكان الأخرى كما بينت لك من قبل ﴿واتل
عليهم نبأ إبراهيم ، إذ قال لأبيه وقومه ما تعبدون ؟ قالوا نعبد
أصناما فنظّل لها عاكفين ، قال هل يسمعونكم إذ تدعون ، أو
ينفعونكم أو يضرون ؟ قالوا بل وجدنا آباءنا كذلك يفعلون ، قال
أفأنتم ما كنتم تعبدون أنتم وآباؤكم الأقدمون ، فإنهم عدولي إلا
رب العالمين﴾ .

قال إبراهيم هل يسمعونكم (بعد أن قالوا نعبد أصناما فنظّل لها
عاكفين) لفهم بأنه يقصد بقوله من أقيمت لهم هذه الأصنام ، وإلا لقال لهم
هل تسمعكم ، ثم ذكر أفأنتم ما كنتم تعبدون ، وبعدها ذكر فإنهم عدولي
إلا رب العالمين مما يشعر أن إبراهيم يقصد الأصنام ومن أقيمت بأسائهم
الأصنام ، وإلا لقال فإنها عدولي (ولم يقل فإنهم لأن «هم» ضمير العقلاء) .

وهكذا يعبر في الآيات التي تتناول قصة واحدة عن معبودى المشركين
بما له من الألفاظ الدالة على العقلاء ، وبما له دلالة على غير ذلك لما سبق
بيانه من أن المشرك يعبد بعبادة الولي الواحد آلهة متعددة ، منها : آلهة الصنم
أو القبر الذى أقامه باسم الولي ، أو الستر فوق عبادته لآله الولي .

ومما سبق ذكره من بيان الأسباب التى وصفهم الله من أجلها بأنهم

عباد آلهة ، ومتخذو شركاء ، وعباد أصنام وأوثان وتماثيل - تؤمن ان ذلك كله ناتج عن عبادة الولي ، وأن الفتنة بالصالحين هي سبب الشرك .

فإذا ما رأيت اختلافا في التعبير عما يعبد المشركون فذلك لاختلاف الاعتبارات وإلا فالشيء المعبر عنه واحد ، أما الاعتبارات التي اختلفت من أجلها التسمية لهؤلاء المعبودين من دون الله فإليك ما قاله الأستاذ عبد الرحمن الوكيل (في كتابه دعوة الحق أيضا) :-

«فمعبودهم يوصف بأنه (ولي) باعتبار موالاتهم له بالدعاء وغيره ، وهذا هو الوصف الأصيل ، ويوصف بأنه (شريك) باعتبار أنهم أشركوه في العبادة مع الله ، وبأنه (إله) باعتبار أنهم أهوه بكل معاني التأليه ، من عبادة وفزع إليه ، واستغاثة به ، ويوصف بأنه (وثن) أو (صنم) أو (تمثال) ، باعتبار المشاهد (الملموس) ، أو باعتبار ما أقيم باسم الولي المعبود ، ويوصف بأنه (طاغوت) ، باعتبار أنه أضلهم وأضلوا هم به ، وبأنه (شيطان) باعتبار أنه مصدر الاغراء بعبادة هذا المعبود . (٤ : ١١٧) ﴿إِنْ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا إِنَّا وَإِنْ يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَانًا مَرِيدًا﴾ وصفها بالاناث وبالشيطان في آية واحدة .

وقال الخليل عليه السلام لأبيه : (١٩ : ٤٤) ﴿يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ﴾ ، ويوصف بأنه (ظن) باعتبار ما ظنوه فيه من نفع وضرر ، وبأنه (هوى) باعتبار أنهم انقادوا لأهوائهم فيه (١٠ : ٦٦) ﴿وَمَا يَتَّبِعِ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ شُرَكَاءَ، إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ، وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ . (٥٣ : ٢٣) ﴿إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمُ الْهُدَى﴾ (٤٥ : ٢٣) ﴿أَفَرَأَيْتَ مِنْ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضْلَهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ﴾ .

وتوصف معبوداتهم بأنها (أسماء) لا وجود لمسمياتها، باعتبار الحقيقة
حيث سموهم أولياء، والله هو الولي، و(شفعاء) والله هو الذي يملك وحده
الشفاعة (١٢ : ٤٠) ﴿ما تعبدون من دونه إلا أسماء سميتموها أنتم
وآبائكم ما أنزل الله بها من سلطان﴾ .

فلا يفتنك المشركون بكثرة الأوصاف فإنها لموصوف واحد . هو (غير)
معبود من دون الله ، ولا باختلاف التعابير فالحقيقة المعبر عنها واحدة، ولا
يعتذر اليوم للمشركين معتذر بخرافة ان الجاهلية أشركت بعبادة الأصنام،
وتسميتها بالآلهة، أما هؤلاء فإنما يدعون أولياء، فقد وضع الحق من القرآن
مشرقا يبدد كل ما يطغى به الباطل من ظلمات .